الإرهـــاب والفوضويـــة

ترجمة: فاروق السعد

قنبلة ولحية وحقيبة ظهر: هذه هي العلامات المميزة، في الأقل في الخيال الشعبي، لمثيري الرعب الذين إما يقومون بالتحريض، أو بتنفيذ التفجيرات التي تهز بين الحين والآخر مدن العالم الغربي. وقبل قرن أو نحو ذلك لم يكن الأمر مختلفا كثيرا: قنابل ولحية وأجهزة تفجير عن بعد. كما أن حالات القلق التي تسببها كلا الموجتين متشابهة أيضا. إن نوبة العنف الفوضوي التي وصلت ذروتها بين عامي ١٨٨٠ و١٨٩٠ قد استُشعرت، وإن بشكل غير مباشر، في جميع القارات. فقد أودت بحياة المئات، وبضمنهم عدد من رؤساء الحكومات، ونشرت الخوف بشكل واسع، ودفعت لإصدار كثير من القوانين الجديدة والتقييدات. ولكن ذلك أصبح من الماضي.

إن الجهاد بالتأكيد ليس الخلف المباشر للفوضوية، بل هو بعيد عنها. ومع ذلك، فإن التطابق بين تفجيرات فوضويي القرن التاسع عشر وإسلاميي هذه الأيام قد يكون ذا دلالة. إن الإسلاميين، أو في الأقل مجموعة أسامة بن لادن، لديهم عدة أهداف، يتمثل بعضها في الرغبة بـ "استعادة فلسطين"، والثأر لمقتل "أبناء أمتنا" وطرد "جميع جيوش الكفر" من "أرض محمد". وهذه الأهداف قد تكون مطروحة من قبل أي حركة تحرير وطنية. لكن هناك أهدافا أخرى أكثر سلفية، مثل جلب الجميع إلى الإسلام، الذي، كما يقول بن لادن "يعني الرحمة للآخرين، لأنه يقيم العدل بينهم، ويمنحهم حقوقهم، ويدافع عن المظلومين والمضطهدين"، وكل ذلك موجود في قوانين الشريعة. من هنا تأتي "العمليات الاستشهادية ضد العدو" والوعد بالجنة لمن يقوم بتنفيذها.

كان الفوضويون دائما يؤمنون بما هو نقيض لدولة الإسلام. إنهم يرغبون بعالم بلا قانون، إذ أراد منظرهم الأول، بيير جوزيف برودون، إزالة الحكومة المركزية كلها. وهذا، مع ذلك، قد لا يسبب الفوضى التي غالبا ما اعتبرت مرادفة لكلمة) anarchyفقدان الحكومة)، بل على العكس، ربما يتبع ذلك نوع من النظام المتناغم، بعد أن يتم استبدال الدولة بنظام من مجموعات وطوائف ذاتية الحكم، تربطها ببعض عقيدة ومصلحة مشتركة بدلا من القوانين. كانت العدالة، كما يجادل هذا الرجل البعيد تماما عن العنف، "النجم المركزي" الذي يحكم المجتمع. وبالرغم من أن هذه الحكمة تنسب الى برودون "المال سرقة"، إلا أنه كان في الواقع يؤمن بأن المرء له الحق في امتلاك بيت وقطعة أرض وأدوات للعمل فيها. كان ذلك أكثر مما ينبغي بالنسبة الى ميخائيل باكونين، وهو ثائر وطني تحول إلى فوضوي يؤمن بالملكية الجماعية لوسائل الانتاج. كما كان يؤمن، أيضا، بأن "الرغبة في التدمير هي أيضا عبارة عن حافز خلاق"، وذلك لم يكن وصفا لإعادة إنتاج الرأسمالية بل نداء للمتاريس. كانت عملية إعادة الإنتاج، على أية حال، موضوعا فوضويا جدا، تماما مثلما هو الأمر مع الجهاد. يقول جورج ودكوك، وهو أحد أبرز مترجمي الفوضوية: "كان الفوضويون دائما يرون بزوغ الأبراج المتألقة لعالمهم الحر من خلال حطام الإمبراطوريات والمعتقدات".

إن ما يدفع للقفز من الفكرة المثالية إلى العمل العنيف هو موضوع حدس إلى حد بعيد. فكل دين وكل فلسفة تقريبا قد كسبت مناصرين مستعدين دائما لأن يسفكوا الدماء، وبضمنها دماؤهم، وبوجه الطغيان والفقر والاستغلال، لذا فإن الاستعداد للجوء إلى القوة ليس عصيا على الفهم. فكل من الفوضوية والجهاد، مع ذلك، دمجتا سفك الدماء بآيديولوجيتهما، أو في الأقل هذا ما قام به بعض من متطرفيهما. وكلاهما كانا مستعدين لتبرير قتل الجنود، ليس ذلك فحسب، بل شمل الأمر الشرطة وموظفي الدولة الآخرين، والمدنيين أيضا.

الرؤوس تتدحرج

كانت النظرية الأساسية، بالنسبة للفوضويين، هي تلك التي نشأت في إيطاليا، إذ وضعها اريك مالاتستا عام ١٨٧٦، وهي تقول: "إن أعمال العصيان، التي ترمي إلى تأكيد المبادئ الاجتماعية عن طريق الأفعال، هي أكثر وسائل الدعاية فعالية". كانت هذه النظرية "الدعاية بالأفعال" قد نشرت بسرور من قبل مفكر فوضوي كبير آخر هو بيتر كروبوتكين، الأمير الروسي الذي أصبح معبود دوائر النخبة في أوربا وأمريكا. ولكن ليس من الواضح إن كانت النظرية قد ساعدت في تحويل المسالمين إلى قتلة، أو أنها قدمت مجرد ذريعة إلى المضطربين عقليا والسذج والحالمين لارتكاب أعمال القتل. إن القتلة، على أية حال، ليسوا في حالة من الشك. ففي حوادث دموية، قام الفوضويون بقتل الرئيس الفرنسي سادي كارنوت (١٨٩٤)، ورئيس الوزراء الأسباني انطونيو كانوفاز دي كاستيو (١٨٩٧)، والأميرة اليزابيث من النمسا (١٨٩٨)، وملك امبرتو من إيطاليا (١٩٠٠)، والرئيس مليم مكنلي من الولايات المتحدة (١٩٠١) وخوزيه كانايخاس اي منديس، وهو رئيس وزراء اسباني آخر (١٩١٢). كانت هذه الاغتيالات، كما قد يجادل البعض، أقل تشابها من تلك التي قامت بها القاعدة، وأقرب إلى العمليات التي نفذها نارودنكي، أعضاء الحزب الروسي إرادة الشعب، الذي كان يؤمن "بتدمير أكثر الأشخاص قوة في الحكومة"، لتدمير ميزتها ولإثارة الروح الثورية. وهذه من غير شك قد تمت في عام ١٨٨١ بقتل القيصر الكسندر الثاني، رغم أنه كان إصلاحيا، وفي الواقع، محرر العبيد. في الحقيقة، إن ممارسة الاغتيالات قديمة قدم الجبال، رغم أنها اكتسبت اسمها بين القرنين ١١ و١٣، عندما اتبعت من قبل الإسماعيليين، وهم طائفة شيعية كانت تعتبر قتل أعدائها واجبا دينيا، ونفذت الاغتيالات تحت تأثير الحشيشة hashish، ومن هنا جاءت كلمة القاتل assassin.

من المؤكد أن السيد بن لادن سيبتهج اليوم عند وقوع عمليات اغتيال درامية. وعلى أية حال، فإن الرؤساء ورؤساء الوزراء لا يقرؤون الصحيفة في شرفات الفنادق، حيث يتسكع الرسامون الإيطاليون العاطلون عن العمل حاملين مسدساتهم في جيوبهم، كما فعل كانوفاس، أو يتجولون في شوارع مدريد بدون حماية وهم ينظرون في واجهات المكتبات، كما فعل كانالياخاس. لذلك فإن السيد بن لادن يجب أن يقنع نفسه بالتأكيد أن الرب ضرب في ١١ سبتمبر "الولايات المتحدة في أكثر النقاط ضعفا. لقد دمر أعظم أبنيتها... لقد امتلأت رعبا من شمالها إلى جنوبها ومن شرقها إلى غربها".

لقد كان الفوضويون، أيضا، سعداء بالمزيد من أعمال الإرهاب العشوائية. "باون واحد من الديناميت يساوي سعر لتر من الاطلاقات"، كما قال اوغسطس سبيز، محرر صحيفة فوضوية في شيكاغو عام ١٨٨٦، ومن الواضح أن قراءه كانوا موافقين. كانت القنبلة التي رميت بعد فترة قصيرة قد أودت بحياة عدد من رجال الشرطة كانوا يقومون بتفريق تجمع مضربين عن العمل في ساحة مدينة هايماركت.

وفرنسا كانت لها ديناميتها أيضا، فقد دمرت إحدى قنابلها مطعم فييري في باريس عام ١٨٩٢، في حين كانت الأخرى، التي فجرت بعد بضعة أشهر، تستهدف مكاتب شركة تعدين، فقتلت ستة رجال شرطة وأثارت موجة من الإشاعات المسعورة: أضيف الحامض إلى الخزان الذي يغذي المدينة بالمياه، كما قيل، وزرعت الألغام في الكنائس والفوضويون في كل زاوية. وبعد عام قرر شاب فوضوي، ممن لم يكن قادرا على إطعام نفسه وحبيبته وابنته، أن ينتحر، وفي الوقت نفسه قام باحتجاج. كان جاهزا لتفجير القنبلة، ولكنه غير راغب بالقتل، فقام برزم كمية من المسامير وكمية قليلة من المتفجرات في وعاء صغير ورماه من بهو عام على قاعة النواب. ورغم أنه لم يوقع ضحايا، إلا أنه نفذ فيه حكم الإعدام. بعد ذلك أخذ آخرون بثأره بتفجير قنبلة أخرى، في مقهى تيرمينوس هذه المرة، ما أسفر عن قتل زبون واحد وجرح ١٩ آخرين. إن منفذ هذا الاعتداء، المصمم على "إضعاف الجماهير"، لم يندم إلا لأنه لم يوقع المزيد من الضحايا. وتتبجح إحدى أغاني الشارع المشهورة بالقول:

It will come, it will come
Every bourgeois will have his bomb

"سيأتي اليوم، الذي سينال فيه كل برجوازي قنبلة". وكان الكثيرون يميلون إلى الموافقة. فقد انفجرت أربع قنابل أخرى في باريس في الشهرين اللاحقين. وقلما كانت البلدان الأخرى أكثر أمنا. فقد رميت قنبلة على مسيرة ملكية في فبورنسا عام ١٨٧٨، وأخرى على حشد في بيزا بعد عامين من ذلك التاريخ. وفي ١٨٩٣، قذفت قنبلتان على مسر ليثيو في برشلونة، وأوقعت ٢٢ ضحية من مشاهدي الأوبرا، في أول ليلة من الفصل. وبعد عام فجر فوضوي فرنسي نفسه بحادث في كتنزه كرنج بلندن، ومن المعتقد أنه كان في طريقه إلى المرصد هناك. وبعد عامين، تحول ما لا يقل عن ستة أشخاص إلى أشلاء، بعد أن كانوا يشاركون في مسيرة دينية في برشلونة، بسبب قنبلة فجرها فوضوي. كما جرت محاولات لا حصر لها لاستهداف حياة أسماء لامعة، مثل ملك اسبانيا الفونسو XII عام ١٨٧٨، والقيصر وليم الأول من المانيا في مايس وآذار عام ١٨٧٨، و رجل الأعمال انريو كارنيجي، وهنري كلاي فريك في بطرسبورغ عام ١٨٩٢، ووزير صربي في باريس عام ١٨٩٣، والملك الفونسو الثامن وزوجته الإنكليزية بمدريد، في يوم زواجهما عام ١٩٠٦، وفي هذه الحادثة فقط قتل ٢٠ متفرجا. وعليه، مثلما هو الحال الان، عم القلق والفزع. ومن الواضح أن الهجمات على الشخصيات البارزة قد كانت متكررة، إذ اغتيل رئيس جمهورية أمريكي واحد عام ١٨٦٥ (لينكولن) وآخر عام ١٨٨١ (كالرفيلد)، وجرت سبع محاولات لاغتيال الملكة فكتوريا قبل نهاية عهدها في ١٩٠١، ولم يكن أي منها على يد فوضوي. ومع ذلك، بالكاد كانت الحكومات قادرة على فعل أي شيء. فقد كان رد البعض منها القمع والعقوبات، التي غالبا ما كانت تثير المزيد من العنف الإرهابي. فقد اعتقلت المانيا ٥٠٠ شخص بعد الهجوم الثاني على القيصر، العديد منها كان بسبب "تأييد" محاولة الاعتداء على حياته. وكانت أسبانيا بشكل خاص تميل إلى تجميع المشتبه بهم عادة وتعريضهم للتعذيب، رغم أنها قد أصدرت قوانين جديدة. وبعد تفجيرات ليسيو، أصدرت أسبانيا قانون الطوارئ ليشمل جميع الجرائم التي ارتكبت بالمتفجرات، الرصاص على مكنلي طفلا لمهاجرين بولنديين إلى أمريكا. وقد لعبت سويسرا، مثل انكلترا، دور المضيف للمنفيين الذين كانوا ياتون ويذهبون بحرية واسعة. وعليه، فليس عجبا أن نرى الشعور المعادي للأجانب قد تصاعد في أماكن كثيرة. ففي الولايات المتحدة، طلب الرئيس ثيودور روزفلت، من خلال معاهدة، من الكونغرس استثناء أي شخص كان يؤمن "بالمبادئ الفوضوية"، ومن يدافع عن عمليات القتل وخرق القانون الدولي. وأجبر الكونغرس في حينها على إصدار قانون طرد أي شخص "يقوم بتدريس إنكار أو معارضة جميع الحكومات المنظمة". وكان قد تم، في وقتها، عقد مؤتمر دولي (عام ١٨٩٨) بطلب من ايطاليا، للحصول على مساعدة لمكافحة الفوضوية. ولم يحصل الإيطاليون على كل ما أرادوه، إذ رفضت بلجيكا وبريطانيا وسويسرا إنكار حق اللجوء أو طرد الفوضويين المشتبه بهم. ولكن بعد انفجار ليسيو في عام ١٨٩٣، منعت بريطانيا تكرر الاجتماعات العلنية للفوضويين، بعد تعرض وزير الداخلية الليبرالي اسكويث لهجوم، بسبب السماح لاجتماع فوضوي لإحياء ذكرى شهداء هايماركت شيكاغو. كان القسم الأعظم من الفوضويين، مثل القسم الأعظم من الإسلاميين، غير عنيفين، وتوجب على قسم من هؤلاء الذين كانوا في يوم ما يؤمنون بسفك الدماء، ولا سيما كروبوتكين، في وقت ما، الابتعاد عن ذلك. ولكن أولئك الذين كانوا يستمتعون بالعنف العشوائي استخدموا حجة تشابه بشكل ملفت للنظر تلك التي استخدمت من قبل بن لادن. لذلك فإن اميلي هنري، الذي ترك القنبلة في المقهى في Gare St-Lazare، قد برر فعلته بقوله إن "جميع من في المقهى كان مقتنعا بالنظام القائم، جميعهم متواطئون وأُجَراء لرأس المال والدولة... فلا يوجد هنالك من برجوازي بريء". من جانبه برر بن لادن، في "رسالة إلى أمريكا" في نوفمبر ٢٠٠٢، "العدوان ضد المدنيين جراء جرائم لم يرتكبوها" وبتغيير طفيف أكثر تطورا. إنهم يستحقون الموت، كما قال، لأنهم، كمواطنين أمريكان، قد اختاروا "حكومتهم بإرادتهم الحرة، وهو الخيار النابع من موافقتهم على سياساتها". إن هذه الآراء تعيد إلى الذاكرة آراء كونرا في "العميل السري"، وفيودور دوستويفسكي في "الشياطين". فبعد أن ألهموا من مثقفي الفوضويين والأحداث، قاموا بوصف رجال يتصفون بمرض نقص العاطفة وتشوه الإحساس الخلقي. وبالنسبة إلى بطل كونرا، الملقب بالبروفسور، فإن أخلاق العالم كانت مصطنعة، فاسدة وكافرة. فحتى أكثر الثورات تبريرا قد تمت تهيئتها استنادا إلى دوافع شخصية، تحت قناع عقيدة ما أو مذهب. إن سخط البروفيسور قد وجد بذاته سببا نهائيا غفر له خطيئة التحول الى التدمير، كوسيلة لطموحه. إن تدمير الإيمان العام في الشرعية قد كان الصيغة الناقصة لحذلقة تعصبه؛ ولكن قناعته اللاواعية في أن إطار النظام الاجتماعي القائم لا يمكن تدميره بشكل فعال إلا عن طريق بعض أشكال العنف الفردي أو الجمعي قد كان دقيقا وصحيحا. لقد كانت تلك وسيلة خلقية استقرت في ذهنه. وعن طريق ممارسة وسيلته مع تحد لا يرحم، كون لنفسه مظاهر القوة والمكانة الشخصية. وكان ذلك أمرا مسلما به بالنسبة لخيبة أمله التي تميل الى الانتقام. لقد شكلت تهدئة للقلق، وبطريقتهم الخاصة فإن أكثر الثوريين تحمسا قد لا يفعلون أكثر من البحث عن السلام مع بقية الجنس البشري، سلام الغرور الهادئ، أمام الشهية التي تم إشباعها، أو ربما الضمير الذي تم استرضاؤه. لقد كان من الصعب اكتشاف الفوضويين، ومن المستحيل ردعهم، كما هو حال البروفيسور، الرجل الهادئ الذي تجول حاملا قنبلة في جيبه كان يمكنه تفجيرها بضغطة على كرة من المطاط، في حالة اعتقاله. فلماذا مرّت موجة إرهابهم؟ لقد حدث ذلك، على ما يبدو، بسبب الإجراءات التي اتخذت لردعهم. وكان السبب الأساسي هو أن العالم قد أصبح منهمكا بالحرب العالمية الاولى، والثورة الروسية، والقتال ضد الفاشية والصراع ضد النظام الاستعماري. والسبب الآخر هو أن أكثر الإرهابيين عقلانية أدركوا، بعد فترة، أن الإرهاب قلما يحقق الغايات التي كان يستهدفها، كما أقر الجيش الجمهوري الايرلندي أخيرا. ولكن في الحقيقة لم تمر الموجة تماما؛ بل إنها تعرضت لمجرد تغيير. فالفوضويون الإرهابيون الذين نشطوا في الفترة ما بين ١٨٨٠-١٩١٠ قد استبدلوا بإرهابيين آخرين، آيرلنديين وقوميين صرب (أحدهم قتل الأمير فرانس فرديناند وبهذا أشعل الحرب العالمية الاولى)، والبلاشفة، والداشناق (الأرمن الثوريين)، والبولونيين، والمقدون، والقوميين الهندوس (من بينهم قتلة الماهاتما غاندي)، والفاشيين، والصهاينة، والماويين، والجيفاريين، والنمور السود، والألوية الحمر، وألوية الجيش الأحمر، والفلسطينيين وحتى جهاديي القاعدة. البعض من أولئك يشتركون مع الفوضويين في الأهداف المعلنة، وجميعهم قد استعاروا بعض تكتيكاتهم وأفكارهم في الأقل. لكن العالم واصل مسيرته، وربما سيكون كذلك حتى لو تحولت "قنبلة ديناميت" البارحة الى "قنبلة بلوتونيوم" اليوم. بيد أنه من غير المحتمل أن يتم التخلص من الارهاب. فطالما يوجد هنالك رجال من أمثال بطل كونراد البروفيسور، فستكون هناك أسباب لإثارتهم، ليرتكبوا بذلك أفعالا لإرهاب أبناء بلدهم.

عن :الايكونومست